رسول الله يعرفنا الإحسان

للاستاذ محمود شلبى

قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . (مسلم) .

قال النووى : هذا من جوامع الكلم التى أوتيها صلى الله عليه وسلم لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره ، وباطنه على الإعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به فقال صلى الله عليه وسلم : أعبد الله فى جميع أحوالك كعبادتك فى حال العيان فان التتميم المذكور فى حال العيان إنما كان بعلم العبد بأطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير فى هذا الحال للاطلاع عليه وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينبغى أن يعمل بمقتضاه فمقصود الكلام الحث على الاخلاص فى العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى فى أتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك .

وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشىء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعا عليه فى سره وعلانيته .

هذا وأحب أن أقول أن هاتيك الكلم الغوالى لسن مما يطيقه بشر ، وإنما هو شىء فوق طاقة البشر ، هو الوحى ، هو النبوة تتحدث بأعلى معانيها .

يسأله جبريل عليه السلام : فأخبرنى عن الاحسان .

ما الاحسان يارسول الله !

فهل كان جبريل فى حاجة إلى السؤال وأجابته ، أم أنه أسلوب من البيان والتبيين للناس أجمعين ؟ .

ومما تأسى له النفس ويندى له الجبين ، أن كلمة الإحسان الجليلة الجميلة ، تدلت وتنزلت من عليائها ، ليطلقها الناس فى زماننا هذا على توافه الصدقات ، وحقير الأفعال . يقولون فلان محسن ، يعنون بذلك أنه كثير الصدقات . ويقولون : إحسان لله يا أسيادى ، يعنون صدقات لله . . الخ هذا التعبير النازل الذى ألصقوه بالاحسان زورا و بهتانا .

إنما الاحسان شىء عظيم ، فوق أوهام صعاليك التعبد ، وأراذل المتسولين .

وكما تحول كثير من عظائم الأمور فى هذا الدين ، إلى أوهام وسخافات ، فقد تحول الاحسان إلى صدقات وخرافات .

الاحسان الذى هو أعلى مقام فى هذا الدين ؛ نزلوا به وجعلوه شيئا تافها ينحصر فى ملاليم تدفع لفقير أو محتال ! ! .

وتلك مصيبة الأديان على كر الأزمان ، وفى كل زمان ومكان .

ينزل الدين من السماء غضا طريا ؛ الهيا روحيا ، يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور . . .

فيتلقفه المرتزقة ، ومن لاصلة لهم بشىء من معانيه ، يشوهون جماله ، وينزلون بسموه ؛ ويجعلون منه تمائم وتعاويذ ، ووسائل إلى أكل مال الناس بالباطل .

فالمصيبة ليست فى الدين ذاته ، وإنما فى محترفة الأديان .

فماذا كان جواب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

فما كان جوابه إلا أن قال : أن تعبد الله كأنك تراه .

وهذه الاجابة المقدسة تنقسم إلى قسمين ، القسم الأول : أن تعبد الله ، والقسم الثانى : كأنك تراه .

أن تعبد الله . . .

لم يقل النبى صلى الله عليه وسلم ، أن تحيا أو أن تعيش ، وإنما قال أن تعبد ، فلما ذا هذا ؟ . هل هو مجرد تعبير أو كلمة تنوب عن كلمة ؟ .

جل كلامه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون مجرد تعبير .

إنما كان أختياره لكلمة « تعبد » لسبب عميق .

هل تدرى ما هو هذا السبب ؟ .

السبب أن الفكرة العامة والسبب الأصيل فى خلق الانسان هو عبادة الله « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ، فالتعبير بالعبادة عن الحياة دون غيرها من الكلمات من أدق وأعمق التعابير .

إنك أيها الانسان مخلوق لله وراجع إلى الله ، وحياتك فيما بين مولدك إلى مماتك ينبغى أن تكون لله ، ومتى كانت كذلك تحولت كلها إلى عبادات .

ما معنى هذا ؟ .

معناه أنك تستطيع أن تحول كل ما يصدر عنك من أفعال وأقوال وسكنات وحركات بل وأنفاس ونبضات ، إلى عبادات تثاب عليها وتؤجر عليها .

كيف ذلك ؟ .

ذلك ممكن ، بل هو الحق الذى قررته الشريعة «إنما الأعمال بالنيات» فمتى اتجهت صادقا إلى الله فى حياتك ، تحول كل ، مايصدر عنك إلى عبادات .

إذا أكلت باسم الله كان ما تأكل عبادة .

وإذا شربت باسم الله كان ما تشرب عبادة .

وإذا ما أتيت امرأتك باسم الله كان مافعلت عبادة .

وإذا مانمت على الفطرة متجها إلى الله كان نومك عبادة .

أرأيت لماذا اختار النبى صلى الله عليه وسلم التعبير بكلمة «أن تعبد» ؟

ذلك من أسرار الأنوار الكامنة فى نور كلمته ﷺ .

فكأنما الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يقول «أن تحيا لله» .

ولكن الجمال والجلال يكمنان فيما هو آت من الجملة المقدسة لافيما مضى منها ، يكمنان فى قوله «كأنك تراه» .

كأنك تعانيه ، كأنك يا إنسان ترى الله جهرة فى كل أحوالك ، لا يغيب ذلك عنك أبدا .

وهنا ينكشف لنا الغطاء عن سر هذه الحياة الدنيا .

إنها تقوم على فكرة هى غاية فى الجمال ، وغاية فى الخفاء ، وإن كانت غاية فى الظهور لمن كشف الله له الغطاء .

تلك الفكرة هى أن الله أقام هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها ، ليعلم من يؤمن بالله بالغيب ومن لايؤمن به .

من يصدق أن الله حق موجود قائم رغم أنه لايراه ومن لايصدق ؟ .

إن الله لم يره أحد منا ، ولن يره ، فى هذه الحياة ، فكيف إذن نصدق أنه موجود ، تلك هى المشكلة ، التى يفترق فيها الناس فرقا وشيعا .

وهذا هو الفارق بين الايمان والكفر . بين الحق والباطل .

أهناك اله أم ليس هناك إله ؟ .

فان صدقت به قبل منك كل ما كان منك على ما كان منك ، وإن لم تصدق به رد عليك كل ماصدر منك رغم ما كان منك .

والمؤمن يؤمن أن الله حق قائم يرى ويسمع كل شيء .

وأنه شيء من هذه الأشياء التي يراها الله ويسمعها دائما وأبدا .

وهذه الحقيقة تقوم في قلوب المؤمنين ، وتأكد أو تتلاشى من أفئدتهم على قدر نقصان إيمانهم وزيادته .

فمن أشرقت في قلبه تلك الحقيقة منهم ، كان ذلك هو الحقيق أن يسمى محسنا .

فمقام الاحسان مقام عزيز ، لايعيش فيه الا من أخلصهم الله لنفسه ، وصنعهم على عينه .

الناس يحاولونه ولكنهم لايصلونه ، وإن وصلوا اليه تدلوا وهم دونه .

ومن كان في شك من ذلك ، فليخبرنا متى استقام للناس إيمانهم ، حتى عاشوا كأنهم معاينون الله جهرة في كل آن ؟ .

اللهم رحمة من عندك تهدى بها قلوبنا ، فنعبدك كأننا نراك .

أما الشطر الثاني من تعريف الاحسان : فان لم تكن تراه فانه يراك فانه يتلألأ بهاء وسناء ورواء .

إنه يراني ، يراني حين أقوم ، وحين أنام ، وحين أكذب وحين أحود ، وحين أستقيم وحين أضل ، وحين أولد وحين أموت ، وحين أعبده وحين أكفره ، وحين أتجه اليه وحين أعرض عنه ، وحين أتوب اليه وحين أنقض عهدي معه ، يراني في كل ذلك ، وفي غير ذلك ، بل يراني قبل أن أخلق ، بل ويراني فيما أنا قادم عليه من عيوب سأكون فيها ، ولما أصل اليها بعد ، يراني أولا وآخرا فكيف الفرار .

كلا لا فرار .

أنا في قبضته منذ كنت نسيا منسيا وحين كنت ، وحين أكون ميتا فانسى .

رحمتك اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين .

محمود شلبي